تجربة معلمة ونصوص طلاب

«يا معلمتي: نتعلم ونحلم ونكتب قصة»

باسمة صواف

ألا يشعرالانسان بالسعادة عندما يرى ابنه قادراً على قراءة الكلمات وكتابتها وهو في الصف الأول، وتزداد سعادته عندما نجده قادراً على قراءة القصص والمجلات واللافتات.

ولكن كيف سيصبح شعورنا عندما نراهم يترجمون ما يفكرون به إلى كلمات منطوقة أو مكتوبة.

يعتقد «تورانس» «أن الأطفال أكثر إبداعاً من الراشدين، وأن أكثر سنوات الطفل إبداعاً هي سنوات ما قبل المدرسة والصفوف الأساسية الثلاثة الأولى، وتخف القدرات بعد زيادة متطلبات المدرسة الأساسية، إذ أن المدرسة بجدولها الجامد، وحصصها المحددة بزمن وبهدف يضعه الراشدون، يمكن أن يحدّ من ظهور القدرات الإبداعية لدى الأطفال» (Torrance,1962).

وبما أن المدرسة هي المكان الآمن الذي يقضي فيه الطالب معظم أوقات يومه، وهي المكان الذي يطور فيه الطفل خبراته، ومعارفه وصداقاته، ولكي لا تصبح المدرسة عاملاً يحد من قدرات الطلاب والطالبات الإبداعية بدل تنميتها، رأيت أن أخرج من جمود المناهج التعليمية وأكسر الحاجز بيني وبين طلابي، وأوّل عمل قمت به هو إحساس الطالب بجوّ من المحبة والأمان، وبخاصة أن الطفل في المرحلة الأساسية بحاجة إلى الإحساس بحب المعلم وعطفه وحنانه.

وبالفعل، استطعت من خلال حبي لهم أن أكسب حبهم لي ولمادة اللغة العربية، فأصبحت حصة اللغة العربية بالنسبة لهم حصة ممتعة وشيّقة، وأصبحت لكلمة يا معلمتي في أفواههم معان ودلالات جديدة وجميلة، تساءلت كيف أجعل من طلاب الصف الثاني والسادس طلاباً مبدعين، يخرجون عن المألوف والتفكير النمطي، يكسرون حاجز الجمود الذي يحول بينهم وبين إبداعهم.

هل يكفي أن يجتاز الطالب امتحاناته بتفوق كي نقول عنه مبدعاً؟! فهناك طلبة مبدعون يحصلون على درجات علمية متدنية لا تتناسب مع إمكاناتهم بسبب وجود مشكلات لديهم في الدافعية للتحصيل، أو بسبب مشكلات تكيفية في البيت، أو المدرسة، أو بسبب إبقائهم أسرى السائد في التفكير وعدم تقبلهم إذا ما أظهروا جديداً في الفكر أو السلوك.

فلماذا لا نستغل نحن المعلمين قدراتهم، ونطلق خيالهم خارج جدران غرفة الصف والمدرسة؟

الأطفال دائماً يحلمون ويتخيلون، فلماذا لا نوجههم بطريقة تربوية سليمة هادفة وندعهم يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم دون خوف وقلق، لماذا لا نستثمر طاقة السؤال عندهم وقدرتهم العجيبة على توليد السؤال من السؤال؟ لماذا لا نوظف شغفهم بالقصة وحبهم في تنمية قدراتهم على التخيل والتأمل والتفكير في الواقع واعادة بنائه كما يحبون وكما يشتهون؟!

لماذا لا نسمع آراءهم وحكمهم على الأشياء؟ لماذا لا نجعل منهم أطفالاً مبدعين، وبخاصة أن الفرد يولد، وهو مزود بإمكانات ذهنية متعددة تتضمن مختلف العمليات الذهنية، لماذا لا توفر الظروف النفسية والمكانية التي تسمح بممارسة التفكير دون فرض ضوابط تعيق تدفق أفكارهم.

نعم، هذا ما بدأت أفكر به، كيف أفسح المجال أمام طفل يبلغ السابعة من العمر ليحيك قصة من خياله وكلماته الخاصة.

لم تشدني قدرات وإنتاج طالباتي في الصف السادس بقدر ما شدني نتاج طلاب الصف الثاني.

بدأت أدرب طلابي على ممارسة أنماط فكرية تنمي وتطور التفكير الإبداعي لديهم، كنت أضعهم في جو بعيد عن الواقع مليء بالأحلام، ولم تمنعهم مساحة الغرفة من القيام بحركات وإصدار أصوات تعبر عن أحلامهم. قمت بتوزيع القصص عليهم وطلبت منهم قراءتها في البيت، وكتابة ملاحظاتهم على قصاصة ورق بمساعدة والديهم، وقمت بعد ذلك بمناقشتهم فيما كتبوه.

طلبت منهم أن يكتبوا قصصاً من خيالهم، فوجدت أن أكثرهم يبنون أفكارهم وخيالهم من قصص سبق أن قرأوها.

فعزمت أن أدخلهم في تجربة جديدة كي ألمس عملاً من إنتاجهم وإبداعهم فقمت بهذه الخطوة:

دخلت غرفة الصف الثاني، وزّعت عليهم قصاصات ورق. سألتني الطالبة غدير: هل تريدين أن نكتب قصة جديدة؟

لم أجبها بل اكتفيت بابتسامة ....

قال أحمد: تريد المعلمة أن نحلم ونكتب عن أحلامنا.

قلت لهم: (اش) اصمتوا جميعاً نريد الآن أن نحلم ونرحل إلى عالم آخر ..... نريد أن نطير.

قال عبد الرحمن: نطير؟ بماذا؟ لا يوجد طائرة، فضحك الطلبة (تجاهلت تعليق عبد الرحمن) تابعت كلامي ... خذوا نفساً عميقاً – شهيق وزفير – سأطفئ النور وأسدل الستائر ونغمض عيوننا ونحلم بأننا نطير فوق غيمة، سنرى إلى أين ستأخذنا؟ وماذا ستهمس لنا؟

بقي الطلبة على هذا الحال بضع دقائق، وكنت أراقبهم بحذر لأنني قلت لهم سأحلم وأطير معكم. وخلال مراقبتي لهم شاهدت بعض حركات اليد والفم تصدر من الطلبة.

بعد ذلك أشعلت الضوء، وطلبت منهم أن يفتحوا عيونهم ويكتبوا ما حلموا به على الورقة، وقمت أنا بالكتابة أيضاً.

وعندما انتهى الطلبة من الكتابة قرأ كلّ طالب ما كتبه، وأجمل حوار دار بين الطالبتين سيما وألباب (والدهما في السجن).

قالت سيما: لقد ذهبت بي الغيمة إلى والدي في السجن ...

قاطعتها ألباب بقولها: ولكن كيف استطعت الدخول، السجن محاط بالسياج والأسوار المرتفعة؟

سيما: ولكن الغيمة تستطيع أن تطير فوق السياج، ولم يشاهدني الجنود، أخذت أبي وطرنا معاً إلى عالم مليء بالورود والحيوانات الجميلة.

وبعد اطلاعي على ما كتبه الطلبة وجدتهم نسجوا أحلامهم الصّغيرة وخيالهم وكلماتهم الرقيقة بقسوة وألم الواقع. وبذلك لم يغادر طلابي الواقع نهائيا بل عندما فكروا به بهذا الشكل تمكنوا من التحرر منه ومن ضغوطاته ولو جزئياً، وأصبحوا بين الفينة والأخرى ينشدون بصوتهم العذب:

يا معلمتي، يلا نحلم .....

باسمة صواف – مدرسة البيرة الإسلامية

من نصوص الطلبة

الفلاح الذكي

«استيقظ أبو فارس من نومه وحمل بيده قنينة وفأسه وقليلاً من الطعام، ثم ذهب إلى الحقل وصاد غزالاً وبدأ يقطع الشجرة كي يحطب، ثم عاد إلى البيت مسروراً وأكل طعامه ونام. وفي اليوم التالي أطلق الغزال وزرع شجرة زيتون».

عبد الرحمن عمير

لص الحديقة

«في أحد الأيام كنت ألعب مع أصدقائي في الحديقة، فرأيت لصاً يسرق الخوخ عن الشجرة، فناديت حارس الحديقة فأمسك باللص، وفي اليوم التالي وجدت حارس الحديقة يسرق الخوخ، فناديت ولم أجد من يمسكه».

ضيف الله عابد

«كنت راكبة على غيمة وقالت لي الغيمة أين تريدين أن تذهبي؟

قلت لها أريد أن أذهب إلى مدينة الملاهي وحديقة الحيوانات وأوصلتني إلى ما أريد وشكرت الغيمة وودعتها»

غدير

«أخذتني الغيمة إلى القمر ونزلت إلى مكان فيه ورد أحمر وعندما كنت ألعب أتت صديقتي ورأينا طائرة وركبنا فيها».

بيسان حمدان

«طارت بي الغيمة وذهبت بي إلى عالم آخر، وهناك رأيت عالماً لا يوجد فيه إلا الأقزام. وهناك رأيت أيضاً حاكماً لهم. وقلت للغيمة أنزليني، وبعد أن نزلت ظنوا أنني شريرة وبعدها ذهبت الغيمة فهربت وأضعت الطريق.

جاءت الغيمة فلم تجدني، وبحثت عني كثيراً، وبعد ساعتين وجدتني فقلت لها طيري بي هيا بسرعة. وبعد ذلك اليوم لم أبعد عن البيت إلا مع أمي».

أسماء إبراهيم

«كنت فوق الغيمة وكانت السماء تمطر قلت لها: أيتها الغيمة. قالت لي: ماذا تفعلين هنا؟

قلت لها: جئت لأطير معك إلى السجن لأرى أبي وأحضنه وآخذه معي إلى مكان بعيد عن الأعداء لنرى الشمس الجميلة والأزهار الجميلة ونقطفها معاً ونرى الحيوانات ونذهب إلى حديقة الحيوانات معاً».

سيما

«كنت على غيمة فرأيت الشمس وقالت لي: ماذا تفعلين؟ وماذا تريدين؟ قلت لها: جئت للتنزه مع الغيمة، وبعد ذلك قالت لي الغيمة: إلى أين تريدين أن تذهبي؟ قلت لها: أريد أن أذهب إلى واد مليء بالأزهار الجميلة فقالت لي حسناً.

وأخذتني إلى المكان نفسه الذي طلبته. وهبطت ثم لهوت وعدت إلى الغيمة وطرت إلى البيت».

حنين القاضي

قلت للغيمة أذهبي بي إلى مصر لأرى «أبو الهول»، فذهبت بي إلى مصر، وقلت لها أن تنتظرني. فقالت سأنتظرك ورأيت أبو الهول والهرم وبعدها عدت مع الغيمة»

طارق سامح محمود أحمد الريماوي

«أخذتني الغيمة إلى الشمس ودخلت من باب كبير إلى داخل الشمس رأيت بيتاً وأطفالاً ولعبت معهم وعندما استيقظت قلت أين الشمس؟»

محمد محمود

«لقد كنت راكبةً غيمة، وسألتني من أي بلدة أنت؟ فقلت لها: أنا من فلسطين الحبيبة.

فقالت لي الغيمة: أدخلي في داخلي كي أحميك من الأشرار».

صفاء نزار علي أحمد

«قال لي أبي: أنت رفعت رأسي في السجن، وقال لي أبي: كيف حالك؟ هل أنت بخير، قلت له: أنا بخير وبأحسن حالة.

وقال لي ركزي في دراستك يا ابنتي، فوعدته أن أكون عند حسن ظنه بي إن شاء الله تعالى، وأوصاني أن أسمع كلام أمي ولا أعصيها حتى يرضى الله عني».

ألباب حلمي

الفلاح والزهرة الحمراء

«استيقظ الفلاح من نومه مبكراً، وذهب إلى الحقل، وعندما وصل إلى الحقل بدأ في الزراعة، وفجأة ظهرت وردة حمراء اللون فاندهش الفلاح من ظهور وردة الياسمين الحمراء، وكانت أجمل زهرة يراها الفلاح، وبعد ذلك رجع الفلاح إلى بيته مسروراً جداً».

غدير نمر

خيال صفاء

«كان يا مكان في قديم الزمان كانت بنت صغيرة وكانت أمها تحكي لها حكاية. وفي أحد الأيام، ذهبت إلى الغابة، فصادفها ذئب وهجم عليها وأخذت تصيح وتصرخ، فسمعها كلبها وكان قريباً منها. وفي هذه اللحظة جاءت أمها إلى سريرها لتتفقدها فعندما لم تجدها خرجت لتبحث عنها في الغابة وهي تنادي باسمها (مريم)، واقتربت الأم من صوت الكلب وهو يدافع عن ابنتها الصغيرة فحضنتها وطمأنتها وعادت بها إلى البيت».

صفاء نزار علي أحمد

الفتاة الفقيرة

«كانت فتاة تعيش في كوخ صغير. ذات ليلة حلمت الفتاة أنها أصبحت ملكة وتعيش في قصرٍ كبير تمشي في حديقة واسعة، وتجلس تحت شجرة كبيرة، وفي يدها كتاب تقرأ فيه، وتجمع حولها الحيوانات، وأمامها بركة ماء وفيها أسماك، وحول بركة عصافير تزقزق، استيقظت الفتاة من النوم وهي سعيدة».

سيما ثابت

النور الجميل

«كنت مع صديقتي، وقد كان كل دقيقة يأتي نور جميل فنبتهج كثيراً، وقد كان (هناك) رجل قاسٍ جداً كلما نفرح نسمع صوت صراخ، فنحزن لو لم يكن موجوداً أنا كنت أتمنى ... أتمنى أن يبقى النور ولا ينتهي أبداً».

حنين عماد القاضي

التخييل في الكتابة الإبداعية

الكتابة الإبداعية واقع وطموح

مي نايف

بصوت حازم طلب موجه اللغة العربية القادم من المنطقة التعليمية من المعلمات عمل حصص نموذجية، تتفرغ عندها المعلمات ويذهبن للحضور كنوع من تبادل الخبرات، ولكنه استدرك ليشير إلى أن الحصص يجب أن تكون مشتملة على كل فروع اللغة العربية التي نقوم بتدريسها. وقد كنت أستمع إليه وهو يقول ذلك ثم ذهبت إلى حصتي لأفاجأ عند عودتي بالموجه يطلب أن يتحدث معي على انفراد، ووجوه المعلمات تظهر أن نزاعاً قد تم في غيابي بينهن وبين الموجه.

جلست بجوار الموجه، فإذا به يطلب مني أن تكون حصتي النموذجية في فرع التعبير، وافقت وأخبرته أنني سأبذل جهدي بها، فوجدت علامات الاستغراب تبدو على وجهه، فلقد جهز نفسه لحرب معي ولجذبٍ وردٍ حول هذه الحصة، ولكنه وجد أن كل ما أعده للهجوم هو ليس في حاجة إليه، فوجدته يعود طفلاً صغيراً وديعاً، ويقول لي إنه من الممكن أن يساعدني وبكل ما أريد وأنه سيساندني.

عندما عدت إلى غرفة المعلمات سألتني المعلمات عن الفرع الذي سأتناوله، وبدت علامات الاستغراب بادية على وجوههن من ارتياحي وتقبلي للأمر، وأنا المعروفة برفض كل ما لا يعجبني.

أذكر أنني أعددت لتلك الحصة إعداداً جيداً مكتوباً ومنفذاً داخل الحصة، حيث قمت بقراءة رأس الموضوع الذي كتبته لهن على شفافية عرضتها لطالباتي على جهاز overhead projector، كتبت لهم على الشفافية:

«بينما كانت المحكمة تضج بالقضاة والحضور، صرخ الرجل من خلف القضبان مظلوم .. مظلوم .. وامرأة في القاعة تنظر إليه وتذرف الدموع وتحاول إسكات طفلها الرضيع» ... اكتبي قصته».

قبل الحصة قمت بإعادة ترتيب الفصل، حيث جعلت الطالبات يتركن الأدراج ويدفعونها للخلف ويقمن بترتيب الكراسي بشكل نصف دائري يستطعن به جميعاً رؤية بعضهن البعض، والتفاعل باللغة المنطوقة وبلغة الجسد.

جلست طالباتي سعيدات بالتغيير ولم أقف يومها، بل جلست أمامهن لتتحدث بشكل حميمي عن القصة، قرأت رأس الموضوع وطلبت من طالبتين قراءته لتحفيز عملية التفكير من قبل الأخريات بالموضوع، ثم بدأت أطلب منهن أن يحددن لي زمن هذه المحاكمة، هل هي حديثة أم إنها في العصور القديمة؟ وأن يصفن المحكمة ... ثم طلبت منهن أن يصفن لي شخصية الرجل الموجود خلف القضبان: الصفات الجسمية والنفسية، وكنت أطلب من كل واحدة أن تقول صفة حتى قلن العديد من الصفات التي تراوحت بين الإيجابية والسلبية. ثم قلت من يصف منكن المرأة الموجودة في القاعة، ومن هي، وما علاقتها بالشخص الموجود خلف القضبان والأحداث ...؟ فإذا بالحماس يدب بينهن، وإذا بالمرأة تتلون بين أيديهن ما بين شقراء إلى سمراء إلى حمراء لتقف طالبة وتقول لي إنها محجبة يا معلمتي، لتنبعث الضحكات من بقية الطالبات ومن المدرسات الحاضرات.

انطلقت الطالبات في وصف طولها وشكلها وملابسها وملامح وجهها وبعضهن جعلها سيدة من الطبقة الراقية، ولكنها لم تستطع تريب نفسها، وبعضهن جعلها مسحوقة، وقررت بعضهن أنها زوجته، والبعض قلن إنها عشيقته، وغيرها الكثير ... كن يصفن، وكل واحدة تريد أن تزاود على الأخرى بوصف استطاعت تخيله ولم تقله زميلاتها ووجهها سعيد بما توصلت إليه، وأنا أحاول أن أنظم تدافع الأفكار عندهن ورغبتهن في القول بشكل سريع، وأطلب منهن في كل مرة أن نتكلم بشكل منظم ومرتب.

ثم قلت لهن: ترى ما حكايته، ولماذا هو خلف القضبان؟ وبدأت الحكايا تتدافع بعضهن قلن إنه سارق، مرتشٍ، متهم زوراً باعتداء على فتاة، جاسوس ... بعد أن استمعت إليهن قلت لهن دعونا نستمع إلى هذا الشريط وكنت فيه قد أعددت لهن عدة أصوات لرجلين وامرأتين يحكون عن سبب اتهامه بشكل بسيط ومركز، لإثراء ما لديهن من أفكار عن حكاية ذلك الرجل.

ثم طلبت منهن تخيل الشكل الذي ستكون عليه النهاية، والحكم الذي ستنطق به المحكمة، وردة فعل الرجل والمرأة والحضور، وانعكاس ذلك على المجتمع خارج القاعة.

بعدها قلت لهن: لقد تكلمنا جميعاً عن أكبر قدر من الاحتمالات للقصة، فهيا نبدأ القصة، حيث تبدأها أول طالبة في نصف الدائرة الموجود منبهة إياهن أن زميلتهن بحكم موقعها سيكون عليها أن تبدأ، فلتفكر آخر طالبة بالخاتمة، ولتفكر الطالبات على الجهة اليمنى بكيفة السير بالحدث قدماً، أما الجالسات أمامي في الوسط فعليهن أن يصلن بالصراع إلى ذروته، لتقوم الطالبات بعدهن بالنزول بالحدث حتى يقدنه للنهاية.

وما أن بدأت الطالبة بالتحدث حتى سألتها: هل ستتحدثين بلسانك ... هل أنت الراوي؟ وسألت طالباتي من منكن ستكتب القصة على لسان الرجل القابع خلف القضبان، ومن ستكتبها على لسان زوجته؟ فإذا بهن يرجونني أن نحكي القصة على لسان زوجته. وإذا بطالبة تقول لي أنا سأروي القصة على لسان قضبان السجن ... أعطيتهن بعض الدقائق لكتابة ما يردن قوله والتركيز بالكتابة، ثم بدأت القصة تنطلق من طالبة لأخرى وكلهن يردن التحدث.

انتهت الحصة وخرجت المعلمات سعيدات بها، بعضهن تقول استغربت من تدافع الطالبات للحديث، وأنا التي أتميز غيظاً في حصة التعبير، والطالبات يرفضن التحدث أو الكتابة، وأخرى تقول أنا لم أحضر حصة تعبير، وإنما لقد كان ما تم حضوره هو برنامج تلفزيوني، والبعض كن يقلن سنحاول عمل هذه التجربة في فصولنا.

مي نايف - باحثة من قالونيا تعيش في غزة